انتهت ..

المرأة في قصص مقبولة

بقلم د/ بهلول أحمد سالم

المرأة صنو الرجل وآخره الشاغل عليه عقله وحياته، ملهمته وسكنه ومودته، تسعده وتشقيه، طالما استدرجته إلى جانبها فمنحها رعايته وعنايته وحبه، ففرضت عليه نظمًا اجتماعية وأنماطًا سلوكية، حددت طبيعة وحدود التعامل معها، فبالغ في الاهتمام بها اهتمامًا يتناسب طرديًا، ودورها الفاعل في واقعه الإنساني المعاش، فراح يستلهم ذاتها وواقعها، ويستنبط عالمها الخاص في تشكيل ملامح صورتها وطبيعتها الأنثوية، ومن ثم تحديد دورها في توجيه فكره ومشاعره وسلوكه تجاه الآخرين من أبناء مجتمعه.

وقد عنى الأدباء على وجه خاص بالمرأة في أعمالهم الإبداعية، واستقوا منها ومن عالمها مادة غنية لبناء نصوصهم وتوجيه مضامينها وأهدافها، والمالكي بوصفه أديبًا يكتب

القصة القصيرة، وينتمي إلى بيئة اجتماعية (المجتمع الليبي) ذات ملامح جغرافية وسكانية وأيديولوجية متميزة، شغل نفسه هو الآخر بالمرأة، فاخترق عالمها وعايشه بمشاعره وفكره، فاهتم بالمرأة في باكورة أعماله الإبداعية، عبر تقديمه نماذج إنسانية متباينة للمرأة العربية الليبية، كما شكلتها طبيعة الحياة الصحراوية الحديثة، وحددت ملامحها الظروف الحياتية في النصف الأول من القرن العشرين، حيث انعكست طبيعة الواقع وظروفه وإيجابية الموقف الذاتي للقاص على آليات وتقنيات الفن القصصي وخصوصيته، فأنتج لنا مجموعة قصصية حملت من بين شواغلها تصورًا متعدد الأبعاد والملامح للمرأة الليبية، وجدلية علاقتها وموقفها من الواقع المعاش، ودورها في تشكيل هذا الواقع وحدود فعلها فيه وموقفها منه.

وفي سبيل الاستبطان الفني لمجموعة المالكي القصصية الموسومة بـ «مقبولة» لتحديد ملامح صورة المرأة فيها، نجد

أنها تعكس مدى تأثير العادات والتقاليد والقيم والنظم الاجتماعية، على أيديولوجية المالكي وأنماط تناوله لواقع المرأة وطريقة معالجته لدورها الاجتماعي.

وما «مقبولة» في ظني إلا رمزٌ أنثوي متعدد الوجوه، ومتباين الأقنعة يمكن الاتكاء عليها للولوج إلى عوالم اجتماعية سائدة، تعاني منها المرأة العربية وخاصة الريفية، ويبدو لي من خلال قراءة عنوان المجموعة القصصية «مقبولة» أن وراءه مغزى قصده القاص، الذي وضعنا باختياره لهذا العنوان أمام تساؤل مثير أولًا وهو: لماذا مقبولة؟

ولكن سُرعان ما تزول الدهشة التي رسمها العنوان، ويرسمها على وجه القارئ عندما تقع عيناه على أولى القصص في هذه المجموعة، ليجد أن المرأة قد قامت بدور الشخصية المحورية فيها، وهذا ينم عن اتجاه نفسي وتحول لدى القاصِّ نحو المرأة وعن نزوعه الفطري إليها وميله نحوها، وهذا يتأكد لنا من اختياره لمقبولة لتكون عنوانًا لمجموعته

القصصية التي تناقش مجموعة من القضايا الإنسانية والاجتماعية والقومية المعاصرة، علاوة على ضم المجموعة لقصة العنوان نفسه تقع واسطة العقد بين التسع عشرة قصة التي حملتها، والتي قدم لنا الكاتب من خلالها صورة للمرأة المغبونة التي جنت عليها التقاليد الاجتماعية والأعراف القبلية والأسرية، فسلبتها حريتها وإرادتها وأوقعتها أسيرة رأي الآخر (ولي الأمر)، وفكره وإرادته، فجاءت صورة مغايرة لطبيعة العلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة، وقد تكرر هذا النموذج السلبي لحياة المرأة بدرجات متفاوتة في العديد من مجتمعاتنا العربية وخاصةً البدوية والريفية منها، كما أشرنا سالفًا، حتى وقت قريب من حياتنا المعاصرة.

وقد قدمت مقبولة نموذجًا مأسويًا للفتاة الصغيرة التي سلبتها النظم الأسرية والأعراف الظالمة حقها، في اختيار زوجها في حالة تقاليد الزواج العمياء بينها وبين التمتع بصباها وشبابها، لتجد نفسها مجبرة على الزواج من شيخ يكبرها

بعشرات السنين، فجاء هذا الزواج ليطفئ شمعة الأمل التي تستشرف بها المستقبل في عينيها، وحرمها فرصة الفوز بقلب حبيبها الذي تهواه، والذي طالما رمت بها الأماني والأحلام في عوالم من السعادة والبشرى معه، ولكن ما حيلتها وقد قطع أبوها بتسلطه وجبروته أمر زواجها مع الحاج «معتوق»، الذي مَنَّى نفسه بفتاة تعيد إليه صباه وشبابه، وأمام هذا الواقع الأسود المأساوي الذي عجزت مقبولة عن تقبله أو التعامل معه، لم تجد أمامها بُدًا من أن تضع حدًّا لتسلط الآخر عليها، فنجحت للمرة الأولى في امتلاك إرادتها التي سلبتها إياها الأعراف الظالمة، فلم تجد سبيلًا للخلاص إلا أن ترمي بنفسها في البحر لتموت غرقًا، فتكون هذه النهاية الحزينة القاتمة هي القرار الوحيد، الذي استطاعت امتلاكه مقبولة وتملكه دون أن يحجر عليها أحد أو يسلبها أحد هذا الحق، ويعد هذا الموقف بمثابة إعلان للثورة والتمرد والرفض لنظم مجتمعية، توارثتها الأجيال وعانت منها المرأة ردحًا من الزمن.

وقد طالعنا القاصّ بنموذج آخر للمرأة ولكنه نموذج مقيت يرفضه المجتمع الذي ساعد هو نفسه علي ظهوره، وكذلك قصة مكتوبة التي أعطاها والدها للحاكم الذي يكبرها بعشرات السنين وكانت ترفضه وانتهى زواجهما بالطلاق وأيضًا قصة (الصحوة) يعري القاص سلبية اجتماعية، ومنقصة أفرزتها ظروف نفسية واجتماعية خاصةً عبر تقديمه لنموذج المرأة الساقطة (بائعة الهوى)، التي في الغالب دفعتها ظروف أسرية واجتماعية إلى احتراف الرذيلة، وبيع المتعة لمن يرغبها ويملك ثمنها، تلك المرأة التي وجد فيها «فتحي» (الشخصية المحورية) سلواه وملاذه الآمن الذي يبدد فيه ألمه وشجونه، ويبثه همومه وشكواه بعد أن استبد به اليأس، وامتلكه الهم لتجاهل رفيقه صباه وحبه «نواره» له، تلك المرأة التي تمثل الطهر والعفة والنقاء على الجانب الآخر للمرأة الساقطة، وبين هاتين توزعت مشاعر «فتحي» وجسده، ففي الوقت الذي رمى جسده بين أحصان

الفاحشة واللذة المحرمة، ترك مشاعره وقلبه خلفه مع محبوبة تظاهرت بإهمالها له رغم حبها الشديد، مما دفعه إلى الرحيل بعيدًا عنها لعله يشفى من حبها فالتقطته بائعة الهوى، بوصفها معادلًا أنثويًا تطلع فتحي إلى أن ينسيه محبوبته «نواره»، فظل يمتح من بئر الشهوة الآثمة دون أن يشفى، إلى أن وقعت عيناه على رسالة دفنتها «نواره» منذ أيام في جيب سترته، عندما حملتها أمه إليها لتصلح ما بها، ولكنه لم يعثر عليها إلا بعد رحيله للأسف عن محبوبته، فيقرأ فيها اعتراف «نواره» بحبها له، وأنها ما تجاهلته إلا لتختبر صدق حبه وطهر مشاعره، ذلك الاعتراف الذي أعاد «فتحي» إلى رشده، وطهر قلبه من أدران الخطيئة وأوحال الشهوة الآثمة، فيستفيق من غيه عائدًا إلى حبه الأول الطاهر «نواره».

وفي الوقت الذي نجح فيه المالكي في تقديم نموذج للمرأة الممتهنة مسلوبة الإدارة، والتي ظلمتها ظروف المجتمع وأغرقتها في أوحال الشهوة الآثمة، وكذا نموذج

المرأة القادرة على الفعل والتأثير في الآخر وتشكيل فكره وتحريك دوافعه وسلوكه، فإنها في قصص المالكي تمثل أنموذجًا آخر للقسوة والجفاء والتسلط فهي كما حدد القاص ملامحها في قصة (الضحية)، وتبدو امرأة غليظة الطباع جافة المشاعر قاسية القلب، ظالمة تدفع من يهواها دون رحمة أو شفقة، (وهذا يناقض ما جبلت عليه المرأة)، على التخلص من حياته بعد أن غرست بيدها أغصان اليأس في قلبه، فقابلت الحب الصادق بالبغض والاستهزاء والسخرية، ذلك النموذج الأنثوي المتسلط تمثله «زهرة» تلك المرأة التي أحبها «صابر» حبًا شديدًا أنساه سخرية الآخرين منه، واستهزاءهم به لعرج أصابه، ومع ذلك نراه يرحل بفكره ووجدانه عن عالمه المعيش القاتم، بازدراء الآخرين له إلى عالم بل عوالم من السعادة المتخيلة في جوار «زهرة»، ولكنه لم يحقق من ذلك شيئًا وإذا به يصطدم بمرارة الواقع الأليم برفض زهرة الساخر لطلبه (الزواج منها)، ولم تكتفي

بالرفض بل راحت تمعن في إذلاله والتهكم عليه، ومعايرته بعرجه فتسرب الأمن من بين عينيه، مما دفعه إلى الانسحاب من الحياة ورفضها بعد أن انقطع آخر خيط يربطه بها.

ويضاف إلى هذه النماذج التي حملتها مجموعة المالكي القصصية للمرأة المعاصرة وموقفها من الواقع، وموقف الآخر منها وعلاقتها به، فإن القاص قدم لنا عبر قصصه أنموذجًا آخر للمرأة: تردد كثير في أعماله الإبداعية كغيره من المبدعين المعاصرين ألا وهو نموذج (المحبوبة) بوصفها باعثة الأمل في نفس الرجل، مداعبة لخواطر ومشاعره تبادله حبًا بحب تتدلل عليه وتضنيه بهجرها، تعشقه كما يعشقها تشقيه وتسعده، يسعى إليها وتتمناه، يرضى لقربها ويغضبه هجرها، بين هذا وذاك يقف منها الرجل وتقف منه وتحدد طبيعة العلاقة بينهما.

ولا تثريب علينا إذا قضينا بأن القاصَّ قد نجح في تقديم نماذجه الأنثوية التي تعكس صورة المرأة العربية والليبية،

على حدٍّ سواء في مجتمع تحكمه تقاليد وأعراف ونظم اجتماعية لا فكاك منها، حددت دور المرأة الاجتماعي، ورسمت صورتها ووجهة نظر الآخر منها.

ومن الناحية الفنية فقد اعتمد القاصّ في بنائه قصصه على تقنية السرد الذاتي للأحداث، على الرغم من أنه يقدم لنا نماذج موضوعية أو واقعية للمرأة الليبية، فقد قام بعرض الأحداث من وجهة نظره الخاصة ومن زاويته الذاتية، فهو يخبر بالأحداث ويمنحها تأويلًا معينًا، يدفع القارئ إلى الإيمان به واعتماده الراسخ به، فقد قام القاصَّ نفسه بدور الشخصية الحكائية (الراوي) المشاهد للأحداث والمتتبع لها، ينتقل عبر الأمكنة وينقل ما يشاهده أو يسمعه من أحداث ومشاهد.

ومن ثَمَّ نراه يتكئ في تشكيل معجمه اللغوي على نمط لغوي يتسم بالوضوح والتلقائية والقصد المباشر لدلالاته، وينأى عن الغموض والإغراب اللغوي، فلم يلجأ القاصّ إلى استخدام الإيحاءات أو الرموز إلا نادرًا، ويبدو لي أنه

قصد هذا المستوى الأسلوبي المباشر قصدًا، حيث نراه يضمن أسلوبه كثيرًا من التراكيب والقوالب اللغوية الجاهزة التي استمدها من واقع مجتمعه، واعتاد العامة استخدامها في أحاديثهم اليومية، رغبةً منه في تقديم فكرته إلى المتلقي، في أيسر صورة وأبسط مفهوم يسهل عليه استيعابها والوقوف على أهدافها ومراميها، ومن ذلك استخدامه على سبيل المثال تراكيب لغوية خاصة بالمجتمع الليبي (اللهجة الليبية) والتي منها: (وين ماشي يا العرج، وغاوي فيه، وإيش دخلكم، ونبيك شريكة حياتي، ومازالت غير هذي .. وليش مادزيتي .. وإيش صار فبي الفطور) وغيرها من التعابير العامية البدوية التي درج العامة على التعامل بها فيما بينهم.

وهذا المستوى التركيبي الذي اعتمده القاصَّ يدلل على تحكم اللهجة الليبية في معجمه اللغوي، وسيطرتها على مفرداته الأسلوبية، وهذا في حد ذاته يُعَدُّ لونًا من الخصوصية الفنية والاجتماعية، حيث يحصر القاصّ نفسه داخل نطاقها،

من ثم يتجه بالخطاب إلى مجتمعه اتجاهًا مباشرًا قاصدًا بحواره فئة محددة من المتلقين أراد إيصال رسالته قبل غيرهم.

ولا تقف مظاهر الخصوصية في مجموعة المالكي القصصية عند حدود المستوى اللغوي الخاص، المُطَعَّم باللهجة الليبية وإنما يتجاوز ذلك إلى خصوصية من نوع آخر غير لغوية، تتمثل في خصوصية مكانية تجلت سماتها في ذكر القاص أسماء عدد من الأماكن والمباني والشوارع التي تتضمنها بيئته المحيطة به، فطبيعة الحال حددت قصصه (جغرافية المكان) الذي دارت فيه الأحداث، حيث نجد إشارات وإيماءات واضحة ومباشرة إلى مدينة طبرق، بما يقع فيها من أماكن ومؤسسات اجتماعية فنراه يذكر المستشفى، وشارع عمرو بن العاص، والحطية والواحة النائية بل انتقل بنا إلى العقيلة والبريقه في قصصه .. وغيرها من العلامات الجغرافية المميزة، كما نلمس أنماطًا أخرى من التميز والخصوصية في اختياره لأبطال قصصه وشخصياها المحورية

حيث أطلق عليهم أسماء شاع استخدامها في المجتمع الليبي وحده منها: «نوريه، ومقبولة، وعزيزة، وربيعة ومكاسب ومكتوبة، وحواء وغالية، ورافع، وحفالش، والصادق، ومعتوق، والصابر .. وعطية وخالد وفضيل وعقيلة وإبراهيم ومنصور وسعيد وغيرها».

ولا تثريب على القاصّ في أن ينحى هذا المنحى، فهو ابن بيئته الناطق بها والمعبر عن آلامها وآمالها، فما ينبغي له أن ينسلخ عنها أو يحدد إطار قصصه المكاني بعيدًا عنها، فشخصيته الإبداعية مرآة تنعكس عليها ملامح البيئة وظروف المجتمع، فجاءت أعماله ترجمانًا صادقًا لطبيعة المكان الذي يحياه ويتعامل معه بأشيائه وموجوداته وشخوصه.

وفي المقابل لا يفوتني أن أشير إلى أن القاص قد لجأ في طيات سرده لأحداث قصصه إلى وسائل أخرى، يقنع بها المتلقي ويخاطب عقله خطابًا مباشرًا، حيث نراه قد اعتمد اطلاعه، وقراءاته المتنوعة وفي الوقت نفسه تكسو أعماله

غلالة رقيقة من المصداقية والتدليل المنطقي والإقناع التصرف (.. جفت الأقلام وطويت الصحف ..) وكذا بعض الحكم والأمثال كما قوله: (رب ملوم لا ذنب له) و(ما باليد حيلة).

ولا يعد من نافلة القول أن مجموعة المالكي القصصية بما تحمله من مضامين فكرية واجتماعية، وقضايا إنسانية عامة شغلت ومازالت، فكر الإنسان العربي، ونالت اهتمامه ومن هذه القضايا الحرية، والفقر والظلم والقهر، والمرأة والمرض والجهل .. وغيرها من قضايا الوطن (الليبي)، يبقى أنني قد كشفت النقاب عن أحد مضامين أعمال المالكي القصصية وهي (صورة المرأة الليبية في مجموعته القصصية هذه)، فإن غيرها من القضايا والأفكار مازالت تنتظر من يتأملها ويستبطن ملامح الفكر والفن فيها.